الـتوكيد البلاغي في الآيات المتشابهة

Ahmed al-DYAB*

الملخص:
ما من شك أن القرآن يشتمل على كنوز من البلاغة العالية، والبحث في هذه البلاغة لا ينتهي ولا ينضب، ويأتي هذا البحث ليؤكد على هذه النقطة وليبين أسلوباً من أساليب التوكيد الذي يستخدمه القرآن بين الآيات المتشابهة ليوصل المعنى و ليوضح الاختلاف بين الآيتين.
الكلمات المفتاحية: التوكيد، المتشابه، البلاغة، أسلوب

Müteşabih Ayetlerde Belagatlı Vurgu

Öz Kur'an bir belagat hazinesidir. Bu sebeple belagat araştırmaları engin bir derinliğe sahiptir. Araştırma, belagat konularından biri olan pekiştirme üslubunu ele almak, müteşabih ayetlerdeki pekiştirme üslubunu açıklamak ve bu üslubun müteşabih ayetler arasındaki farklılığı nasıl açıkladığını göstermek amacıyla yazılmıştır.

Anahtar kelimeler: Kur'an, vurgu, müteşabih, belagat, üslup.

Balaghah Emphasis in Mutashabih Verses in the Quran

Abstract Certainly the Qur'an is a source of eloquence. For this reason, there is no end to the rhetorical investigation of Quran. The research was written to discuss this subject, to explain the emphasis style in the verses and to show how this style explains the difference between the verses.

Keywords: Al-balaghah, the Quran, mutashabih, emphasis, enthusiasm, style.

* Dr, Ankara Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arapça Okutmanı, ahmad.adyab@gmail.com

المقدمة:

التوكيد من أساليب العربية وهو يفيد تقرير المؤكد وتمكينه في نفس السامع، يقول الزمخشري: "وجدوى التأكيد أنك إذا كررت فقد قررت المؤكد وما علق به في نفس السامع ومكّنته في قلبه وأمطت شبهة ربما خالجته، أو توهمت غفلة وذهاباً عما أنت بصدده فأزلته"[١] والتوكيد في القرآن من الأساليب المهمة، فالقرآن يؤكد في مكان ويترك في مكان آخر وهذا كله يرجع لأن السياق والآية تتطلب ذلك. والتوكيد كما هو مقرر في العربية يأتي على مستويات كثيرة، فنرى الكلام قد أُكِد بمؤكد واحد وأحياناً نجده باثنين وأحياناً نرى ثلاثة مؤكدات. وقد اخترت جزئية صغيرة من هذا الموضوع الكبير في القرآن وهو التوكيد ب " إن و اللام " وخصصت ذلك في الآيات المتشابهة التي يأتي التوكيد فيها " بإن " واللام " مرة وأحياناً يأتي " بإن " لوحدها دون اللام.

يقول الله تعالى في سورة طه { إن الساعة آتية أكاد أخفيها ١٥} طه

ويقول تعالى في سورة غافر { إن الساعة لآتية لا ريب فيها ٥٩} غافر

يكاد يكون الجزء الأول من الآيتين واحداً لولا توكيد آية غافر باللام، فماذا يفيد توكيد الخبر باللام؟. لمعرفة ذلك ننظر إلى السياق القرآني الذي ذكرت فيه الآيتان، سياق آية طه وردت أثناء خطاب رسول الله ﷺ بالتسلية والتصبر والأسى بسبب ما يلاقيه من شدة قريش وكبرهم ثم تذكيره بما حدث لموسى وكيف أنجاه الله تعالى من فرعون ومن ثم نصره على فرعون، فلم يكن ليناسب هذا وقوع الخبر في دائرة التوكيد، لأن الرسول الكريم يعرف أمر الساعة أشد من وضوح انبلاج الفجر.[٢] أما سياق آية غافر فإن فيها تقريع وذم للكفار وقريش، فجاءت اللام لتأكد الإخبار عن مجيء الساعة وأنه لا يوجد أدنى شك في ذلك. لكن يوجد رأي آخر يقول إن الخطاب في آية طه هو موجه لموسى عليه السلام وهي جزء من قوله تعالى (إني أنا ربك فاخلع نعليك١٢..) طه، وأن سيدنا موسى لم يكن في شك وإنكار من وقوع الساعة فلم يحتج الكلام إلى توكيد الخبر باللام.[٣] ومن ناحية أخرى، فإن آية غافر انتهت بأن أكثر الناس لا يؤمنون فلزم تأكيد الخبر باللام، بينما لم يأت ذلك في سياق آية طه فقد ختم الآية بقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى). فالكلام هنا لم يكن في المعاندين والمنكرين وإنما كانت لمجرد الإخبار المحض. نقطة أخرى، الحديث في سورة غافر عن يوم القيامة وقيام الساعة، فالجو العام لهذه السورة هو الكلام عن الساعة[٤].

يقول الله تعالى في سورة آل عمران { وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ١٨٦} آل عمران.

ويقول تعالى في سورة لقمان { واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ١٧} لقمان.

وقال تعالى في سورة الشورى { ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ٤٣} الشورى.

نلاحظ من هذه الآيات أن لام التوكيد لم تذكر في آية آل عمران وآية لقمان، بينما ذكرت اللام في خبر آية الشورى، فما هو السبب في ذلك؟ يقول ابن الزبير: إن سبب التخصيص هو أن آية آل عمران افتتحت بقوله تعالى { لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ١٨٦} آل عمران، فعرّفوا بثلاثة أنواع من الابتلاء هي الأموال والأنفس وسماع الأذى.[٥] أما آية لقمان فقد جاء افتتاحها بقوله تعالى (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ١٧) فهذه المحامد التي أمر لقمان ابنه بها هي أربع خصال وأفعال. أما آية الشورى فقد جاء سياقها ممتلئا بالمطالب والأفعال والصفات حيث يقول الله تعالى (فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ٣٦ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ٣٧ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ٣٨ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ٣٩ وجزاء سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ٤٠ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ٤١) الشورى. فكما نرى من هذه الآيات كيف امتلأت بالأفعال والصفات والأعمال حيث نرى كيف أشار الله تعالى إلى مسألة الإيمان والتوكل في بداية الآيات ثم ذكر في الآية السابعة والثلاثين ثلاثة التزامات ومحاسن وأعقبها في الآية الثامنة والثلاثين بأربع خصال ومحاسن ثم عرّج إلى مسألة الصبر في الآية التاسعة والثلاثين وأنهم يتحلون بالصبر إذا أصابهم البلاء والشدة واختتمت الآيات بالعفو والإصلاح في أعمالهم،[٦] ثم جاءت الآية التي نحن بصددها (إن ذلك لمن عزم الأمور) فمجيء كثرة هذه الخصال والصفات استلزم مجيء اللام لتأكد عظمة هذه الأفعال وأن هذا الأمر لا يمكن أن يصدر من إنسان عادي. وهذا ما لم يتحقق في الآيتين السابقتين فالالتزامات والخصال فيهما كانت قليلة مقارنة بآية الشورى.[٧]

وقد نلمح توجيهاً آخر وهو أن سبب زيادة لام التوكيد في آية الشورى هو دخول اللام الموطئة للقسم في قوله تعالى (ولمن صبر وغفر) التي تحمل معنى التوكيد وهذا ما لم يكن في آية لقمان التي ما دخلت عليها لام التوكيد في الخبر لعدم وجود القسم أو ما يحمل معنى القسم.[٨] ويرى ابن الخطيب : إن ما رغب الله تعالى فيه عبده في آية الشورى من الصبر على الإساءة والمغفرة لمن أساء إليه أمر يشق على الإنسان فعله، فناسب ذلك توكيد الكلام ب (إن) واللام فقال: (إن ذلك لمن عزم الأمور)، وليس كذلك في آية لقمان[٩]، فقد أمر لقمان ابنه بالصبر على ما أصابه فقط، وهذه الإصابة غير محددة، فقد تكون ظلماً يقع على إنسان وقد تكون ابتلاء يقع من قبل الله تعالى، فلم يكن هناك ما يستدعي من التوكيد كما رأينا في آية الشورى[١٠]. إن أساس هذه المسألة يرجع إلى عزيمة الإنسان وشدة تحمله والعفو عند الإيذاء والعدوان عليه ولذلك جاءت آية الشورى متضمنة لهذا المعنى، فكم هو صعب أن يصبر الإنسان على الأذى والعدوان؟ وكم هو صعب أن يعفو الإنسان على الظلم والعدوان الذي وقع عليه؟ فهذا لا يكون إلا من إنسان يملك الصبر الحقيقي والإيمان المتقد ولذلك كانت آية الشورى باللام لتؤكد على هذا المعنى.

ننتقل إلى آية أخرى وهي قوله تعالى في سورة الأنعام { إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ١٦٥} الأنعام. وهذه الآية تشابه آية الأعراف في قوله تعالى { إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ١٦٧} الأعراف. الجزء الأول من الآية جاء بدون اللام بينما نرى اللام جاءت في الجزء الأول من الآية الثانية. يجب ألا ننسى أن اللام حرف توكيد غالباً ما تقترن بإن المؤكدة،[١١] إذن الأداتان تحملان معنى التوكيد، فاللام تفيد معنى التوكيد وكذلك"إن"، ومن هنا كانت آية الأعراف مؤكدة بأداتين، بينما لم تؤكد آية الأنعام إلا بالأداة "إن" فما هو السبب؟. يقول بدر الدين بن جماعة: "إنه لما تقدم ما يؤذن بالكرم والإحسان في قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ١٦٠) الأنعام ناسب ترك التوكيد في جانب العقاب"[١٢]، أما آية الأعراف لما تقدم ما يؤذن بغضب الله وعذابه من اتخاذهم العجل وحلّ السبت ناسب توكيد جانب العذاب بدخول اللام[١٣].

يقول ابن الزبير: "إن آية الأنعام تقدمها قوله تعالى (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ١٦١) وهذا خطاب للنبي ﷺ، إلى قوله (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ١٦٥) والمخاطبون أمة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم ليسوا بجملتهم ممن استحق عقاباً، ومن عوقب من أهل القبلة فعقابه منقطع بفضل الله، وعلى هذا فلا وجه لزيادة تأكيد سرعة

العقاب".[١٤] ولذلك يبدو الفرق واضحاً بين آية الأنعام وآية الأعراف، فاللام أتت في آية الأعراف لأنها تفيد توكيد سرعة العقاب، لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل، وهو عقاب بني إسرائيل بالذل والنقمة وأداء الجزية بعد المسخ لأنه في سياق قوله تعالى (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب)، وهذا بخلاف العقاب المذكور في آية الأنعام فإنه آجل بدليل قوله تعالى (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) فاكتفى فيه بتأكيد (إن)، ولذلك لما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختصت بزيادة التأكيد.[١٥]

الخاتمة:

لابد لي من ذكر بعض النتائج التي توصل إليها هذا البحث:

١- كثر الحديث عن المتشابه وكان موضع نقاش وجدل بين علماء اللغة من جهة وبعض المستشرقين الذين يحاولون إنكار بلاغة القرآن وإعجازه من جهة أخرى، وهذا في الحقيقة ناتج عن القصور اللغوي والفهم الخاطىء.

٢- لو كان التكرار حاصلاً في آيات القرآن لانتفت بلاغة القرآن وزالت خصائصه الأسلوبية والبلاغية.

٣- إن المشتغلين في بحث آيات القرآن المتشابهة لا بد لهم أولاً وقبل كل شيء أن يكونوا عالمين بالعربية علماً واسعاً ولا يكفي معرفة النحو والصرف ولكن لا بد من التعمق في بلاغة العربية.

٤- بعد معرفة البلاغة العربية لابد للمشتغل في المتشابهات أن يستحضر المناهج النقدية الحديثة التي أشارت بعضها إلى أهمية السياق وأن الدراسات الحديثة تسلط الضوء على السياق بفروعه المختلفة.

٥- النص القرآني هو نص متحرك وذو دلالات واسعة ولذلك تأتي أهمية دراسة علم النص من هذه الزاوية وأنه لا بد للباحثين من معرفة أساسيات علم النص التي تؤهلهم للبحث في نص القرآن.

٦- تشابه الآيات يبدو للوهلة الأولى تشابه لفظي ولكن عند التمحيص والنظر نجد أن هذا التشابه نقطة بداية لدراسة الأسلوب والسياق إلى أن نصل إلى فهم الخصائص البلاغية للآية.

المصادر والمراجع:

البرهان في علوم القرآن، بدر الدين بن عبد الله الزركشي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧
بصائر دوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، القاهرة، ١٣٨٣
التفسير القيم، ابن قيم الجوزية، جمع محمد أويس الندوي، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٤٩
التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، المطبعة البهية، مصر
حاشية الصبان على شرح الأشموني، محمد بن علي الصبان، دار إحياء الكتب العربية، مصر
درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٣
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت
كشف المعاني في المتشابه من المثاني، بدر الدين بن جماعة، دار الوفاء ١٩٩٠
المفصل في علم العربية، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، مطبعة حجازي، القاهرة.
ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن الزبير الغرناطي، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٥
وجوه من الإعجاز القرآني، مصطفى الصباغ، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥

الهوامش:

١- المفصل، الزمخشري، ص٤
٢- ملاك التأويل، ابن الزبير، ص٦٧٧
٣- درة التنزيل، ابن الخطيب، ص ١٥٢
٤- التفسير الكبير، الرازي، ج٣، ص١٣٢
٥- ملاك التأويل، ابن الزبير، ص١٨٣
٦- روح المعاني، الآلوسي، ج٤، ص٨٤
٧- التفسير القيم، ابن القيم، ص١٥٣
٨- ملاك التأويل، ص٧٨٠
٩- بصائر ذوي التمييز، الفيروز أبادي، ص٤٢٠
١٠- وجوه من الإعجاز القرآني، مصطفى الصباغ، ص٥٥
١١- حاشية الصباغ على شرح الأشموني، محمد الصبان، ص٢١٤
١٢- كشف المعاني، بدر الدين بن جماعة، ١٧٣
١٣- ملاك التأويل، ص٣٦٠
١٤- ملاك التأويل، ص٣٦٣
١٥- البرهان، الزركشي، ص٦٦